حكم لي الأخرس

فلس درهم
السعر بعد الخصم

مدونة أبو عبدو

بخريات صغيرة

خطيب بدلة

8
ح

جميع الحقوق محفوظة للناشر
الطبعة الأولى ١١/٨٧/٣٠٠٠

DUBAI PUBLIC LIBRARIES
30000016190GQ

الأهالي
للطباعة والنشر والتوزيع
دمشق هاتف: ٤٢٠٢٩٩ ص.ب ٩٥٠٣ تلكس ٤١٢٤١٦

بلدية دبي / الشؤون الادارية
قسم المكتبات العامة / مكتبة الراشدية
الرقم العام Serial No. ٤٤١٩٨
الرقم الفني Class No. ٨١٣,٠٤
التاريخ Date ١٩٩١
٨١٣,٠٤
ح د ب

حكى لي الأخرس

سخريات صغيرة

خطيب بدلة

. . والحـمار الأعجم كما تعلمـون، هو ذلـك الحـمار الـذي سلم، بالعجمة، من عاهة النطق. فأنعم وأكرم.

اميل حبيبي / لكع بن لكع

حكى لي الأخرس، قال:

كنت ـ كسائر عبيد الله، وأمائه ـ خرساناً، ومتوكلا على الله.

مثل القرد الصيني: لاأسمع، لاأرى، لا أتكلم.

أمشي، إن مشيت، في ظل الحائط.. لا أبوك ولا أبو الشيطان.

أعمل، آكل، أشرب، أنام... كحمار أعجم.

عندما كنت صغيراً، وكنت على وشك تعلم النطق، فاجأني أبي بقوله: الرجل، يابني، هو الذي يكفي الناس خيره وشره. قلت: أبي لا يغشني. وخرست.

لكنني اكتشفت، بعد فوات الأوان ربما، ويا للغبن، أنني أكفيهم شري، فقط... في حين هم دائبون على ابتداع الطرق والوسائل التي تمكنهم من سحب خيري، حتى صار وجهي بعرض إصبعين. ومع ذلك بقيت أخرس.

وفي ليلة، ما فيها ضوء قمر، جاء الناطقون. قالوا: تفضل معنا. فتلت أصابعي مستفسراً، إلى أين؟ قالوا لاتخف، ألست أخرس؟ فهززت رأسي: بلى. قالوا: لماذا أنت خائف إذن، إنه مجرد فحص روتيني نجريه للخُرْس لنتأكد من أنهم مايزالون خُرْسا.

أخذوني. وضعوني في غرفة مظلمة، وأقفلوا الباب. بعد زمن طويل طويل، وبينما أنا سارح، أفكر في احتمالات المسألة، جاءتني لسعة سوط. صحت: آ...

فقال أحدهم للآخر: اختبره في الباء.

فنقلوني إلى مكان معتم بارد. نويت أن لاأصيح آ.. مهما ضربوني. دخل البرد عظامي، وأخذت أسناني تصطك: ببببببب.. ب ب ب....

فقال الواحد للآخر: اختبره في التاء...

وهكذا، حتى تعلمت الأبجدية.

شكراً لهم. وأنا سأحكي.....

تعريف لا بُدَّ منه

خير الكتابات هي تلك التي لا تهش ولا تكش، ولا تعض ولا تخرمش.

هي تلك التي تفصل الرأس على قد الطربوش.

هي تلك التي تحمل السلم بالطول، محتفظة بمسافات أمان شاسعة.

تريد سلتها سالمة، مع العنب ـ إن أمكن ـ، وإلا فبدون عنب، وإن تعذّر، فبدون سلة.

هي تلك التي تسد عليك الآفاق فلا تترك لك موطئاً.. لقلم.

تخالها طيناً. تدوس فلا يعلق خفك، ولا تزحط.

يتلقاها القارىء الظمآن على الريق فيشرق من أول بلعة.

لا تدفىء برداناً ولا تشفي عليلاً..

لا تسد رمقاً، لا تستر عورةً ولا تفضح ستراً.

لا تسمن ولا تغني....

لا تفسد خلوةً ولا تنقضُ وضوء.

لا تمازح أحداً، لا تعادي أحداً.

لا تحتاج إلى رقابة.

هي تلك التي يفهم بعضها ـ كما قال الآمدي ـ من بعض، ويأخذ بعضها برقاب بعض.

تضعها في منخل الزمان فتنزل جميعاً.

سهلة الفك والتركيب، والخلط وإعادة الترتيب، والجذر والتربيع والتكعيب.

تبوس اليد التي لا تقدر على عضها وتدعو لها بطول السلامة.

تقول للقصير: انحنِ لأبوسك، وللأعمش: جننتني العيون الكواحل!...

من أجل برميل

«إلى تاج الدين الموسى»

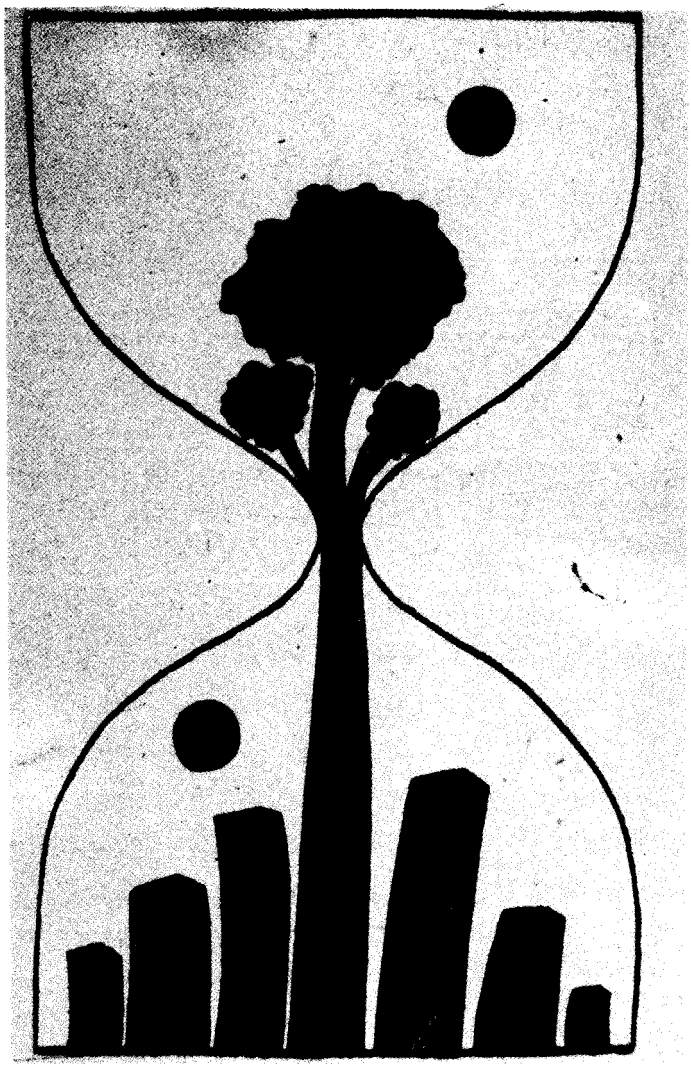

(سري / يُفتح بالذات)

السيد رئيس مجلس المدينة المحترم.

من بعد التحية،

نحن أهالي حي الجمهرة، المكموعة سابقاً، نعرض على حضرتكم مايلي:

١ ـ في الفترة الواقعة بين ١٩ و٢٦ آذار من العام الحالي، أقام مجلسكم ـ أطال الله إقامتكم فيه ـ أسبوعاً للنظافة العامة، سارعت الورشات التابعة لمجلسكم خلاله إلى تركيب براميل للقمامة، في الشوارع والحارات. انتهى الأسبوع، نظرنا، فوجدنا أن حارتنا قد بقيت ـ أدام الله بقاءكم ـ من دون برميل.

ضربنا أخماساً لأسداس، فكرنا، سألنا، استفسرنا.. فطلع معنا أن الأمر راجع؛ إما للإهمال، أو ـ سبحان الذي لايسهو ولا ينسى ـ للنسيان.

٢ ـ قلنا نذكركم، فتقدمنا بكتابنا المؤرخ ٣ نيسان، المسجل في ديوان مجلسكم تحت رقم ١٣٣٦/و. م. م. شرحنا لكم فيه، باختصار، ملابسات الموقف، والاحتمالات المستقبلية، والأضرار التي قد تنجم عن قلة وجود برميل قمامة في الحارة.

٣ ـ ... ولأننا لم نلق استجابة، فقد تقدمنا بكتابنا المؤرخ ١٨ أيار، المسجل في ديوان مجلسكم تحت رقم ٢٣٧٥٦٨/و. م. م.، المعطوف على كتابنا

السابق . . . ، أشرنا فيه إلى أسبوع النظافة ، وإلى خطورة الحالة وبدء تفاقمها .

٤ ـ . . ولأن كل شيء بعد هذا ، قد بقي على حطة يدكم ـ أطالها الله وأيّدها ـ فقد قررنا :

آ ـ مخاطبتكم بالبريد السري ، إذ لربما كانت كتبنا العادية لا تلقى الاهتمام اللازم .

ب ـ شرحَ الموقف بالتفصيل . ونحن واثقون من أن قلبكم الكبير سيشملنا بعطفه :

* * *

أصبحت حكايتنا مع الوسخ ـ ياسيدي ـ حكاية . فالوسخ ـ كما لا يخفى على حضرتكم ـ يجلب الحشرات . وقد جاءنا منها : شيء يئز وشيء يقع ويفز . . . شيء يزحف وشيء يسبح وشيء يفرفح .

تحولت الحارة إلى ما يشبه المستنقع المهجور . فقد فقس حولنا البعوض والبرغش والفسفس والقمل والجراد والنمل والنمل الطيار والعث والقراد والجندب . . والبراغيث والشبت والعناكب وأفراس النبي والرتيلاء .

ناهيك عن الرخويات : الحلازين والجراذين والسلاحف والجرذان والفئران والصراصر والمناجذ وآباء بريص والبزاق والخنافس وأمهات أربع وأربعين وأمهات علي الدعبلي وكبائب الشوك .

ويا ليت الأمر اقتصر على هذه الكائنات الحقيرة . فلقد أصبحت حارتنا ، حارة الجمهرة ، المكموعة سابقاً ، كما المغناطيس ، تجذب الحيوانات السائبة ، فجاءنا منها : شيء يدب وشيء يخب وشيء يخمع وشيء يطلع . . . . شيء يحبو وشيء يتعثر فيكبو . . .

مصدرةً أصواتاً : مختلفة : فمنها ينهق ، ومايعبق ، ومايصهل ومايشحج ، ومايخور ومايهمر ، ، ومايصيء ومايقوقيء ، ومايثغو ومايرغو ، ومايلغلغ ، ومايفحّ ومايطح .

أصبح المرض أمراً مألوفاً: الملاريا والجرب والربو والطاعون والسعال (الديكي منه خاصة) والخناق وأبو كعب وأبو صفار والوتاب والتهاب اللوزتين والشقيقة وحفر الأسنان والقلاع والجرب والباسور والناسور والغنغرينا والحميراء والدوزنتاريا والحمى العادية والحمى التيفية والحمى المالطية وحمى النفاس وحمى البحر الأبيض المتوسط (مع أننا بعيدون عن البحار!). . والديسك والحدب والجنف والهزال والكساح والتهاب الزائدة الدودية والقولون والتهاب الكبد والمرارة والقرحة المعدية والمعوية والإثني عشرية وذات الرئة وذات الجنب وأبو فريوة والجدري والجذام والحودير والأمطلس وانسداد المجاري البولية، وما أدراك. . .

ولهذه الأمراض أعراض شديدة الاختلاط والتداخل: الدوخة والإعياء والضعف العام وارتفاع الحرارة وهبوط الضغط والهذيان والغثيان والهلوسة والرجفان واللهيب والخلط والتخشيب والتنميل والتبويظ والإقياء والإسهال (سنعود إلى موضوع الإسهال في آخر الكتاب) والهرش والحكة والمغص والنغل والكرتعة، وأشياء أخرى نستحي من ذكرها.

تحيط الأتربة والرمال بالمنازل، تلبد في مكانها حتى تهب الريح، عندها ما ترى إلا وقصاصات الورق والعيدان والأتربة تنذري، تنفرط، تلوب، ثم تلتم وتشب عمودياً، وتنغزل وتنجدل وتنفلش من ثم وكأنها ألعاب نارية، وتتهادى وتنزل متمهلة. . تلتقطها الخياشيم فيبدأ العطس والسعال والتفتفة، أو تسف في العيون فتذرف ـ هذه الأخيرة ـ الدمع مدراراً غزيرا. . وما تبقى تحمله الريح إلى أهالي الحارات الواقعة شرقينا، فتكمعهم كمعاً.

أهالي الحارات الواقعة شرقينا أناس نظيفون مرتبون (. . . . عندهم براميل). . فلم يسكتوا، ولم يقفوا إزاءنا مكتوفي الأيدي، بل رفعوا علينا عشرات الدعاوى / .احتجاجاً، منها ماحُسم ومنها ماهو في طور الاستئناف أو في النقض، أو في طريقه للتبليغ (هذا إذا استطاع المحضرون دخول حارتنا!!).

بعض أبناء حارتنا، وبعض من أبناء حارات أخرى، نزلوا إلى المدينة فلم

يجدوا فيها ملعباً . . فجاؤ وا حارتنا فمنحتهم مرتعاً خصباً لحقاراتهم وسفاهتهم . . تراهم اليوم رائحين غادين فوق أسطحة المنازل وفي أيديهم أكياس مربوطة (لم نتمكن حتى تاريخه من معرفة ما بداخلها) يطوحون بها في الهواء ويقذفون بها إلى الأزقة كيفما اتفق . . . (لو كان عندنا برميل، أفتراهم يفعلون ذلك؟) .

منطقتنا نائية ـ سيدي ـ وقريبة من الكروم والأراضي البور. وهذه ـ كما سبق وذكرنا ـ أصبحت تعج بالحمير والكدش والبغال المتروكة بلا أرسان، الجائعة دائماً وطالما أن غذاءها متوفر، فإنك تراها اليوم دائمة المضغ . وبعد؟ ما النتيجة؟ . . . تروث فيزداد طينُ حارتنا بلة .

وياليتها تجيء لوحدها، بل إنها صارت تجرجر وراءها ما فتح ورزق من الكلاب والقطط (مع أن هذه ـ كما تعلمون ـ حيوانات لاحمة، وزبالتنا خالية من اللحوم ومشتقاتها) . . والجرذان . . ولقد سمنت ـ هذه الأخيرة ـ إلى حد الانفجار، إلى حد أننا صرنا نخلط بينها وبين القطط الكبيرة . . ولعلمكم فإنها صارت، من فرط الألفة الناجمة عن طول المعاشرة، لاتهرب إذا مر بقربها بشري . . . . وتصوروا ـ سيدي ـ في الليل، خاصة في الليل، ترتطم بأرجلنا أو تعلق بأكمام سراويلنا، فتضيء، ليس خوفاً، ولكن غبطةً وحبوراً .

ولن ننسى ماحيينا منظر تلك المرأة الحامل التي أمسك جرذ انتحاري بمرط ملاءتها وهي تهم بصعود الدرج فأقعت وأجهضت في الحال . ولن نشرح لسيادتكم استحالة دخول سيارات الإسعاف إلى الحارة، ولا كيف قامت نساؤ نا بدور القابلات حتى لُفْلِفَ الموضوع . . لكن الشيء الذي يشق الإنسان غيظاً هو ذلك الجرذ الحقير الذي، بعد ما أودى بحياة الجنين وعرَّض المرأة إلى خطر محدق، مشى الهوينا وكأن شيئاً لم يكن .

تنشب أحياناً خلافات حادة بين فريق من القطط وفريق من الجرذان (غريب أمر هذه الكائنات ـ سيدي ـ لا تقتتل إلا بعد أن تشبع) . . . يبدأ الخلاف عادة بمهاترات خفيفة، وبتبادل نظرات لئيمة، ثم يحترس كل فريق ويتمرس

وراء تلة من الـوسـخ . . ثم يحتـدم المـوقف ويتأزم ، فيبدأ الضرب والنخر والعض والإقعاء والزعيق والصيء والتراشق بالفضلات . . وهكذا حتى تثور ثائرة الكلاب الكلاب ـ التي لم تكن أساساً عابئة بأي من الطرفين ـ فتتمطى وتكر عليهما فيهربان .

(ولكم كان إعجابنا كبيراً عندما ، ذات مرة . . ، تناسى قط وجرذ خلافهما ، واتفقا على كلبة ، هاجماها وقطعاها إرباً إرباً) .

وعـودة إلى موضـوع الإسهـال ـ كما وعدنا ـ تعرفون أن البيوت التي نسكنهـا مصممـة بمـرحاض واحد (. . فمن كان يتوقع أن تنسى ورشتكم حارتنا دون برميل؟) .

حدثنا أحد أبناء حارتنا ، قال :

ـ سكن ابني الصغـير المـرحـاض ، ولم يعد يغادره إلا في السوانح والبوارق ، ساءتني منه تلك السلوكية الصبيانية ، وكنت مرة مضطراً ، فاقتحمته عليه وأخرجته بالعنف . . لكنه سرعان ماعاد . . . و . . . لم يكمل الرجل القصة .

هذا شيء عن حالتنـا سيـدي . . فالحقـونـا ببرميل . . الحقونا . . ركبوا لنا برميلاً في الحارة . برميلَ قمامة نطلب . . الله يشهد : لا نطلب سوى برميل للقمامة . ركبوه ، فإن لم تفعلوا فسيأتي يوم تحكون فيه لأبنائكم :

«كـان يامـاكـان . . كانت حارة فقيرة ، اسمها الجمهرة ، المكموعة سابقاً ، تقع في الشمال الشرقي للمدينة . . . . » .

وستستقدمون للتنقيب عنا الأجانب . . والله أعلم . . لأنه من وراء القصد . .

ودمتم .

عشرات التواقيع

تحريراً في ـ ١٥/١٢/١٩٨٦ ـ ادلب

أخطاء مطبعية

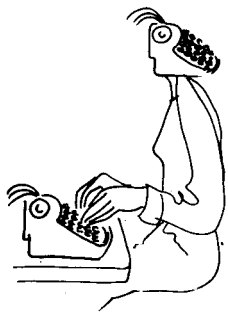

لعبت بعقلي تلك المرأة. قالت إنها قرأت قصة جميلة جداً، يهديها كاتبها إلى حبيبته (كاترين)، فلماذا لا أكتب أنا قصة جميلة جداً، وأهديها إلى حبيبتي (خديجة)؟.

قلت: معك حق والله، فأنت تساوين عندي ستين (كاترين) و(ماترين) وبطيخ الجبل. . ، لكن عادة الاهداء، ياحبيبتي، يمارسها الكتاب الكبار، وأنا ـ في الكتابة ـ لاأبطل وضوء. ومن جهة أخرى، وهذا مايجب ألا يخفى عليك حبيبتي، فأنا لاأجرؤ على ذكر اسمك أمام أعز أصدقائي، فكيف أنشره في الجرائد؟ أم أنك نسيت أن إخوتك وأبناء عمك مستعدون لفرمنا مع بعض إذا علموا بالأمر؟

نطت من على السرير، قالت وهي تقهقه:

ـ من أين لك كل هذا الغباء ياأحلى حبيب على سطح الكرة الأرضية؟

ودفعتني فانكفأت على قفاي. . وتابعت:

ـ وهل من الضروري أن تكتب الإهداء. «إلى خديجة نطاط الحيط، بنت صطوف، والدتها زلخة، خانة ٧١٦ تولد ادلب ١٩٦٠» مثل تبليغات ضع أي حرف أو كلمة ترمز لاسمي، وانتهى الاشكال.

أعجبتني سرعة بديهتها. قلت:

ـ أنـا فعـلاً غبي، وغبـائي مُرَكَّـزٌ لايخلطه خالط. . والدليل هو أنني أتركك واقفة هكذا، بينما أنا مستلق على ظهري.

ومددت يدي وسحبتها من رسغها، فطارت في الهواء وحطت على صدري كما الطير القلاب. . . . واستأنفنا الأعمال التي كنا قد بدأناها قبل قليل.

* * *

في اليـوم التـالي كتبت قصـة وجعلت الإهـداء هكذا: «ـ إلى حبيبتي ذات الشفة المقلوبة»

كانت القصـة قصـيرة جداً، حاولت أن يكـون عنـوانهـا كبـيراً فضفاضاً: العمـلاق! قرأتهـا لخديجـة فأعجبت بها كثيراً، وأخذت تبوسني على نحو سريع، مهووس. ثم توقفت فجأة وقالت:

ـ بس؟ هذه هي القصة؟ أم أنك تستضيع بخديجة قصة أطول قليلاً؟؟

وحـردت. . وأدارت وجههـا إلى الجـدار. . بينما رحت أشرح لها أن العبرة ليست في الطـول والقصـر. . ، وأن قصة طويلة لكاتب مغمور مثلي، لاتنشر على الإطلاق، لسبب بسيط هو أن حجم الصفحة الثقافية في الجريدة محدود، وكتابها كثيرون وفيضـانيـون، بحيث لايتسـع لإبـداع الـواحـد منهم هكتـار من الورق يومياً. . فأين سأجد متسعاً لقصة أطول؟

بش وجهها والتفتت نحوي قائلة:

ـ أنا آسفة يا أذكى حبيب على اليابسة.

وتابعت البوس السريع المحموم.

* * *

مضى على هذه الحكـايـة عام، ربـما أكثـر، تزوجت خلالـه حبيبتي ذات الشفة المقلوبة وأنجبت توأمين. وتزوجت أنا من امرأة ليست لها شفة مقلوبة، ولا تحب الأدب ولا الاهداءات ونسيت الموضوع من أساسه.

* * *

قبل أيام دخل علي صديق بيني وبينه مزاح من العيار الثقيل. ودون أن يسلم علي ضرب جريدة كانت بيده على طاولتي وقال:

- الكسر ليديك ان شاء الله. الله لايوفقك. تفو على الذي علمك كتابة القصة القصيرة.. بربك هذه قصة تواجه به الله والناس؟ ياعيب الشوم، تسترزق يعني؟

وقفت أمامه مشدوهاً. قلت:

- عن أية قصة تتكلم؟ العمى ضربك، أنا لم أكتب قصة من سنة.....

صاح:

- وتكذب أيضا؟ من سنة؟.. وهذه القصة المنشورة لمن؟ أليس هذا اسم حضرتك؟ آ...؟

أمسكت الجريدة ورحت أفتش بين العناوين حتى وجدتها.. قلت له:

- وهل تصدق أنني أكتب مثل هذه الألغاز؟ إنها الأخطاء المطبعية... و..

ولم يدعني أكمل كلامي. نتر الجريدة من يدي وراح يقرأ (العلك) المنشور فيها على أنه قصة من تأليفي:

المعلاق

- إلى حبيبتي ذات الشفة المفلوقة...

كان ياماكان.. كان رجل معلاق اسمه غنمان، خرج من بنته غاصباً، وهو يصرخ بأغلى صومه بالمرقة الواقفة بحوار الحائط:

- لو كان عندك شيء من السماجة، والاناء، والقفة، والشهاقة، والأخلاط الخميرة، لما ضربت الناب في وجهي أيتها المرقة الزيرقون.

فرذت عليه المرقة بلكمات بدينة وصوت مريقع وقالت:

- لو كنت أعرف أنك عصبي إلى هذا الحد ماكنت اتخذت منك بغلاً...

فغضب المعلاق غضباً سديداً وشجب الحرية المعلقة في زناره وضرب بها نفسه.

عندئذ تدخل مواظب كان مستنداً إلى عجور الهايف قائلا:

ـ لو لم تقرقر ياعم لكنت وصلت مع مرقتك إلى البرلمان!!.

ادلب ـ آب / ١٩٨٥

مجتمع فاسد

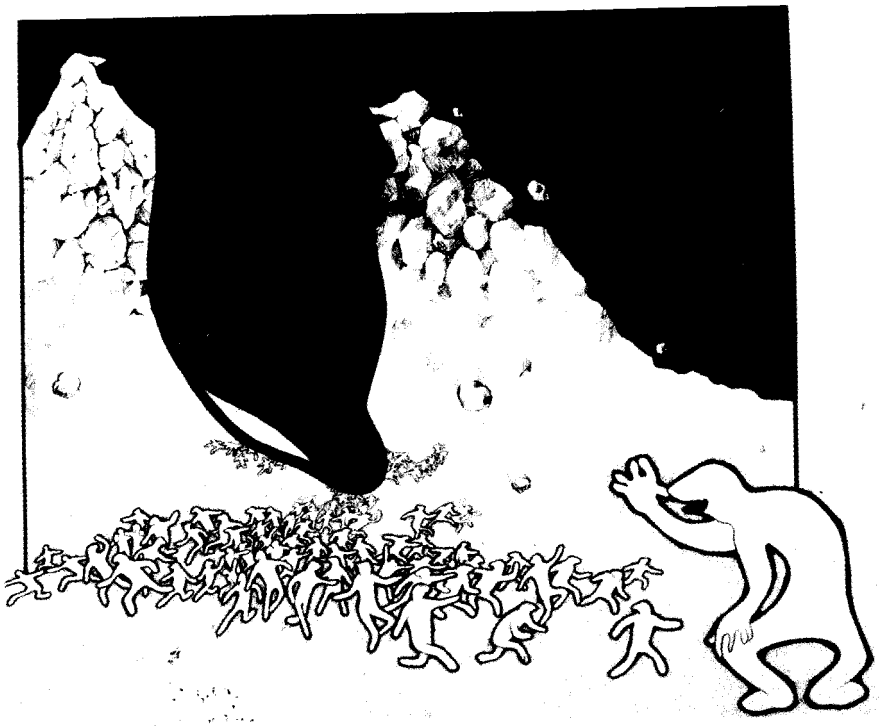

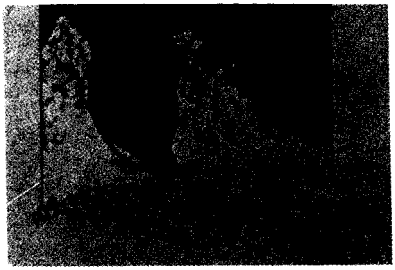

. . واحد من أولئك الذين يعبرون شارع الجلاء يومياً. أستطيع ـ إذا حاولت ـ أن أتذكر أنني شاهدته، أكثر من مرة قبل هذا، واقفاً أو سائراً أو جالساً أمام أحد الدكاكين.

الساعة في حدود الثامنة والربع، وأنا، بطبيعة الحال، متأخر عن الدوام. كان واقفاً أمام مكتبة ولي زكي، وجهه إلى الجنوب، وشراشيب السمنية[1] نازلة على رقبته، وهي في حالة نوسان دائم. أحس أنني صرت قبالته فمد يده اليسرى، ليقطع علي الطريق، على نحو مقصود. خفت. قلت:

ـ خيراً؟

فقال وهو يحاول إدخال نهايات شعر شاربيه في فمه:

ـ قل صباح الخير أولا!!

قلت:

ـ أ. . أنا آسف، صباح الخير.

فرسم على وجهه ابتسامة حركت كل تجاعيد وجهه:

ـ أنت؟. .

ـ بالضبط.

ـ بربك؟

تيقن أنني الشخص الذي يبحث عنه فصاح:

ـ أهلا وسهلا.. تعال...

وتطـاول على رؤوس أصـابعـه وراح يبـوسني من قحف رأسي، ثم نزل ودفعني إلى الوراء، وتناول يدي بيده وراح يخلعها بعنف:

ـ قل هذا الـكـلام من الأول.. العمى!.. أنـا قلت لنفسي من.... من.. ابن من هذا؟ أنت يا ابني كاتب قصـة؟.. ومتى صرت كاتب قصـة؟.. إي قسـما بالله منظـرك لايـوحي بذلـك ثم.. عائلتكم كلهـا لاتتعاطى الأدب.. فمن أين...؟

أثارني الرجل.. منظره، هو الآخر، لا يوحي بأنه يقرأ: رجل في الخمسين من عمـره، يلبس الشنتيـان والملتـان ويلف على بطنـه شالـة[2] لو فردتهـا ومددتها لوصلت إلى بنش[3].. ويقرأ؟ الدنيا إذن في ألف خير.

ـ عفوا. كيف عرفت أني كاتب قصة؟

فقال بثقة عالية:

ـ ولو... قرأتها.

ـ أين؟

في الجريدة.. أف!.. تظنني أمزح؟ يابو أديب. ياولي...

ودفعني إلى داخل المكتب.

ـ هات لي الجريدة التي فيها قصة ابن أخي، هات!

أمسكت يده. قلت:

ـ طيب طيب.. لا داعي..

نتر يده:

ـ بل توجد مئات الدواعي! ألست تحكي في قصتك عن العمال وما عمال؟

ـ بلى.

ـ وأنت ماعلاقتك بهذا؟ أنسيت من أبوك وجدك . . ؟

أوقعني سؤاله في مـأزق حقيقي . . . . كان يجب أن أفلسف له الأمور، الزمن تغـير، وأنـا لا أزروزر أحـد . . ثم إن هذا تاريـخ . . إلـخ . . لكني خفت من أن يفهمني على نحو خاطىء، فقلت:

ـ وبرأيك واحد مثلي، عن ماذا يجب أن يكتب؟

أدخل إصبعه تحت السمنية المحصورة بين رأسه والبر يم بإحكام . . . حك رأسه برفق. قال:

ـ طيب إذا حكيت لك قصة . . أقصد حادثة جرت معي ؛ هل تكتبها؟

ـ أحاول.

لكن بشرط!.

ـ تفضل.

ـ أنا أضع العنوان، وأنت تصرّفْ بالقصة كما تريد.

ـ اتفقنا. ماهو العنوان؟

ـ مجتمع فاسد!

قالها وهو ينقل المسبحة من يد إلى يد. فكرت بسرعة (عنوان ساذج، لكنه مثير، وأنـا مغـرم بالإثـارة) . . . تهيأت لسـماع القصـة، واضعاً أمام عيني فوات الدوام والحصول على أجازة. قال فجأة:

ـ أنت متزوج؟

ـ متزوج . . نعم.

ـ احلف لي بالطلاق إذن أنك لن تغير العنوان!

ـ عفوا. أنا غير معتاد على الحلفان، وخصوصا بالطلاق.

ـ معك حق . . . الحلفان بالطلاق على الطالعة والنازلة عادة كريهة . . عافاك . . .

القصـة ومـا فيهـا ياابن أخي، أنـا رحت البارحة إلى معرتمصرين[1]. قلت

أشتري ديكاً وكم دجاجة من بازار الجمعة. كان معي قرطال، عندما وصلت وضعته عند محمد رحمو. . . قلت لماذا أعتله معي؟

ـ معك حق، . لماذا تعتله معك؟

ـ كان البازار حامياً، والدجاج كثيراً. . . . أعجبتني دجاجة رصاصية فتية يضعها شاب صغير أمامه. سألته: بكم؟ فقال: بمئة ليرة. قلت: أف! أحسن دجاجة بسبعين. قال: أنت حر. حسبتها بسرعة: كل شيء يرتفع سعره، من شهر كان كيلو لحم الخروف بستين، اليوم بتسعين. . . الخلاصة اشتريت. ناولته المائة ليرة، دسها في جيبه وخرج من البازار. وأنا أيضا خرجت، قلت هذه كافية. مررت بمحمد رحمو، أخذت القرطال ومشيت. ركبت في باص ادلب. وأنا في الباص اكتشفت اللعبة. . ألم أقل لك إنه مجتمع فاسد؟

ـ بلى، قلت لي.

مسدت صدر الدجاجة وإذا بريش صدرها ينقلع. . الابن الحرام، هل تدري ماذا فعل؟

ـ لا والله.

ـ صدر الدجاجة أمعط. . جمع ريشا من لونها، هندسَهُ ولصقه على صدرها بالصمغ. فككت رباط ساقيها، ورميتها في أرض الباص. الدجاجة ترميها فتنزل على رجليها. . لكن هذه، المسكينة، نزلت على رأسها. فهمت، ختيارة ومصابة بالروماتيزم. . إي، علي الطلاق مصابة بالروماتيزم. . لماذا تنظر إلي هكذا؟ طيب رُحْ إسأل البياطرة، قل لهم الدجاج؛ يصاب بالروماتيزم أم لا؟ صحت بالسائق: أنزلني هنا. نزلت وعدت مشياً على الأقدام.

ـ عدت إلى البازار لترد الدجاجة لصاحبها؟

ـ لا لا. . رحت وضعت القرطال. عند محمد رحمو. قلت لماذا أعتله معي؟

ـ وضعته عنده وطرت إلى البازار.

ـ لالا. ذهبت إلى دكان طه حاج حسون، اشتريت قنينة صمغ. .

- صمغ؟

- إي صمغ. أعدت الريش كما كان وعدت إلى البازار.

- وكبست الشاب الذي باعك الدجاجة قتلة على الكيف.

ضحك:

- أيّ شاب؟ ألم أقل لك إنه خرج من البازار.. إي قسماً بالله، الذباب الأزرق لم يعد يعرف مكانه.

صحت مذعوراً:

- بعت الدجاجة لغيره؟

- يرحم أباك.. كيف عرفت؟ وقفت ربع ساعة لا غير، جاءني زبون مستعجل، ربحت فيها عشرين ليرة.. فما رأيك؟

- رأيي؟ بماذا؟

- بالقصة؟

- جميلة. أكثر مما تتصور.

- وهل ستكتبها؟

- طبعاً. بالتأكيد.

- وهل ستنشرها ونقرؤ ها عند عمك ولي زكي؟

- هذه لا أضمنها.

- وهل ستسميها (مجتمع فاسد) كما اتفقنا؟

- سأسميها (مجتمع فاسد) عليّ الطلاق بالثلاثة!!!.

ادلب / أيار / ١٩٨٧

---

(١) و (٢) السمنية والشنتيان والملتان والشالة والبريم.. اللباس الشعبي الادلبي.

(٣) بنش قرية تقع إلى الشرق من ادلب ٦ كم.

(٤) معرتمصرين ناحية إلى الشمال من ادلب ١٠ كم.

محاولات للدخول في قصة «البرميل»

إلى وليد معماري.. مع القرنفل طبعاً.

هذه القصة مركبة تركيباً. بمعنى: لم يأتي شيطان القصة[1] ويتلبسني، ويدقّ لي قدمَه بالأرض ويقول: قم أكْتُبْ. وكذلك، لم تنتبني قشعريرة، حتى أطقّ سناً بسن، وأرتجف، وأهذي، وأطلب دثاراً، وأغيب، ثم، عندما أصحو، أتناول أقرب ورقة وقلم، وأكتب عن ظهر قلب. لم يحصل شيء من هذا القبيل. ومن جهة أخرى، أنا لم أر حادثة أو مجموعة حوادث تأخذ مكانها على أرض الواقع، حتى أصورها وأونقها وأرشرش عليها البهارات اللازمة، وأنقلها إلى حضراتكم على أنها (قصة).

الجانب الواقعي الوحيد في قصتي، هو:

«نقرتْ زوجتي بقفا يدها على برميل المازوت، فجاوبها بصوت عال له بحة حزينة. ضحكتُ وقلتُ: أعلى الأصوات تصدرها الأواني الفارغة[2]. وتوقعتُ منها أن تضحك مما حسبتُه نكتة الموسم. لكنها لم تضحك. قالت بحزم: أي، وبعد؟ قلت: ياستي نملؤه، لكن، حنانيك، انتظري رأس الشهر. فقالت على الفور: هذا يعني أننا، في رأس الشهر، لن ندفع، إما للعقاري أو للتسليف الشعبي أو قسط الجمعية أو قسط السجادة أو... فقاطعتها مذهولاً بميكانيكية ذاكرتها، قلت: معك حق، فديوننا، كلها ـ والله الحمد ـ من الدرجة الممتازة[3]. وفقست ضحكة عالية، علها تنعدي، فما انعدت. قالت: هذا الذي أنت بارع فيه، اللهوقة[4] وتمييع المشاكل.

انــزعجتُ. أيقنتُ أن المشكلة التي أمـامي، هي الأخـرى، من الـدرجـة الممتازة. عضضت سبابتي ورحت أفكر. . قلت فجأة: ثمة حل. قالت: ماهو؟ قلت: لو سمحت اعمـلي لي فنجـان قهـوة. قالت: ما. . . في. . قهـوة. قلت: شاي، كمون، أي شيء. . وتركتها واتجهت إلى غرفتنا المتحدة[٥].

بعد دقائق أحضرت الشاي. أشعلتُ سيجارة ونفخت دخانها في الهواء إلى الأعلى، لففت ساقاً على ساق، زممت حاجبيّ[٦]، قلت:

ـ الحل يتوقف عليك.

ـ علي؟ كيف؟

ـ تأخذين الأولاد وتخرجون من البيت ساعتين. خلالها أكتب قصة قصيرة، وأرسلهـا غداً إلى الجـريـدة. أذهب إلى دمشق في آخـر الشهـر، أقبض ثمن الاستكتاب، و. . .

. . . ولم تستمـع زوجتي إلى تتمـة الفكـرة. جرّت الأولاد وخـرجت وهي تندب حظها، بينما رحت أنا أكتب:

الـبرميـل

قصة قصيرة بقلم: خطيب بدلة

الزمان: لايهم الزمان، طالما أن القصة مركبة تركيباً.

المكان: مدينة في دولة واقعة إلى الشرق من البحر الأبيض المتوسط.

أبطـال القصـة: أنا وزوجتي والبرميل. . وكاتب فاشل[٧]. اسمه مصطفى جودت، وشخصيات أخرى أكثر هامشية.

فكرة القصة: أقوم أنا، بوصفي إنساناً مثقفاً[٨]، بتحليل شخصية الكاتب الفـاشـل مصطفى جودت، ليس بالمعنى الفـرويـدي، ولكن أدرس الأسبـاب والعـوامـل الاجتـماعيـة والسياسية التي تجعل منه كاتباً فاشلاً، ورائجاً، في الوقت

ذاته . . أكتب قصة قصيرة، أجعله بطلها، أرسل القصة إلى الجريدة . . .

هدف القصة : عادي ، معيشي ، لايخلطه خالط .

العراقيل المحتملة :

عرقولة أولى : لم تنشر الجريدة القصة ، لهذا السبب أو لذاك[٩] . .

الحل الممكن الوحيد : استبعاد هذا الاحتمال ، لأنه إذا ظل قائماً ، لايبقى عندي أي مسوغ للاستمرار في كتابتها .

عرقولة ثانية : نشرت الجريدة القصة . لم يصرف ثمن الاستكتاب في آخر الشهر . . ، أو أنه صرف ، وذهبت لأستلمه من أمين الصندوق ، فبكى[١٠] ، وقال وهو يكز على أسنانه : تعال بعد يومين .

الحل الممكن الوحيد : أستلف من طلحة أو من ياسر الطليق ، وأعده بالتسديد فور قبض ثمن الاستكتاب .

عرقولة ثالثة : حصلنا على النقود بأية طريقة ، ذهبنا إلى الكازية ، فقالوا لنا : لا . . . يوجد . . . . ما . . . . زوت . .[١١] .

حل ممكن أول : أضرب صحبة مع (أبو حمدو) علّه يدبّر لي بائع مازوت جسوراً بما يكفي لأن يقبض مني خمسين ليرة ، زيادة عن التعرفة ، ولا يخشى (التموين) .

حل ممكن ثان : أترك النقود التي استلفناها (بموجب الحل الأول) مع زوجتي ، وأوصيها بمراقبة الشارع من النافذة ، فقد تخطم عربة مازوت ساهمة ، فإذا ما[١٢] رأتها ، ترسل لي أحد الأولاد إلى الدائرة ، فأحصل على إذن اضطراري ، وأهرع إلى البيت .

التصور النهائي للقصة :

مرت أيام كثيرة من كانون الأول ، وأنا وزوجتي والأولاد ، نرتجف من البرد . أمضينا معظم أوقاتنا تحت البطانيات . . سهرنا مرة عند جار يسكن في البناية المقابلة ، عنده خزان يتسع لخمسة آلاف ليتر[١٣] . . سحبنا بعض النقود التي

استلفناها من ياسر الطليق، واشترينا بها (كاز)، وصرنا نشعل البابور حتي تحمرّ التنكة التي فوقه، ونقلب أصابعنا فوقها.

خرجت من البيت في حدود الثالثة ظهراً. كنت قد ضربت موعداً مع بطل قصتي، مصطفى جودت، (الذي تحول، كما ترون، إلى شخصية هامشية، بفعل التأثر السحري لمادة المازوت) وصلت الساحة الرئيسة التي يتفرع الجانب الشرقي منها، إلى زقاق مسدود يتصدره بيت مصطفى جودت.

كانت الريح تلم الغبار والأتربة وتدور بها دائر مدار الساحة، وتشكل منها الزوابع. وفي اللحظة التي وضعت يدي فيها على مكبس الجرس، مرقت عربة مازوت يجرها كديش، من رأس الزقاق. تركت الباب وركضت... ركضت.. لا أثر له.. ركضت في الساحة على نحو دائري... لاأثر! أضعت الجهات وأنا أركض.. أين؟ لقد وصلت إلى بيتنا. دخلت، لا أحد. أين الشعب إذن؟ نزلت... اتجهت شمالاً.. ياه.. هاهو.. سلمت. لم يرد. كان يفرغ المازوت من برميل جارتنا (قدرية) على عبوة تتسع عشرين ليتراً، ويصبه في عربته. غريبة! هل جاء يبيع المازوت في الحارة، أم جاء يشتريه؟ سألت، لم يجبني أحد. استدرت فوجدت زوجتي مستندة إلى جدار مملح، وحولها بعض النسوة. سألتها فأفهمتني أن سوء تفاهم قد وقع بين قدرية والبائع. قال إنه يقرف من البيع في هذه الحارة (الجربانة).. سكان (الضبيط) يدفعون له على هواه، ولا يعدّون عليه العبوات...، بينما،... شوفوا هذه الأرملة الـ... أقول لها عشرة فتقول تسعة.. وها هو يعيد المازوت إلى العربة ليثبت لها أن نيتها سيئة...

انتهى العد، فكانت تسعاً. قالت قدرية: أرأيت؟

لم يرد. واستأنف وصلة السباب... في الحارة، وفي الذين يسكنونها.. وفي البائعين الذين يمرون منها، ولو كان هو واحداً منهم. سحب كديشه ومضى وراء رجل يرتدي ثياباً غريبة كان ينتظره على بعد أمتار ويغمزه بعينه اليمنى...

بينما وقفنا أنا وزوجتي وقدرية والنساء، على نسق، دون أن ينبس أحد بكلمة. . . .

وفي تلك اللحظة هبت ريح أكثر برودة.

ادلب ـ أربعينية الشتاء ١٩٨٦

الهوامش :

(١) ليس للقصة شيطان، مع أن كتابتها تحتاج إلى كثير من الشيطنة.

(٢) وكذا الرؤوس. وكذا الجيوب، فالطفران ـ إذا كنت تلاحظ ـ يمتلك عادة كمية لا يستهان بها من النقود المعدنية (الفراطة)... وربما كان هذا هو السبب في أن البعض يطلق على سكان حارتنا صفة (فراطة).

(٣) هي ذلك النوع من الديون الذي يودّي صاحبه إلى السجن.

(٤) كاللقوة واللكاعة...

(٥) نوم جلوس استقبال سفرة... وأحياناً كثيرة، وخاصة في الشتاء، تدخلها النونية، فيصبح مرحاضها منها وفيها.

(٦) هنا استطاعت زوجتي الإفراج عن ابتسامة.

(٧) عندما أقول عن كاتب ما، إنه فاشل، فهذا يعني أنني كاتب ناجح.. ومثل هذا القول يسبب ما فتح ورزق من الضحك.

(٨) تكتب كلمة (مثقف) بالثاء.. مع أن معظم الناس يلفظونها (مسقف) بالسين. وهو من كان مسقوف الإمانات، بل وكثير السقوف... والبعض يلفظها (مشقف) بالشين، وهي ليست بعيدة عن واقع الحال.

(٩) .. أو لذياك.....

(١٠) يبكي أمين صندوق الجريدة التي أكتب لها كلما جاءه مستكتب خارجي.. ذلك أن المستكتبون يخطئون في معرفة الوقت الذي يكون فيه رائقا.

(١١) وهذه يسمونها في علم الكلام / فرع الفذلكة: الطامة الكبرى. من طم يطم فهو طام، والذي يقع عليه الفعل مطموم، على وزن مطمور، ومكموع..... الخ.

(١٢) مابعد إذا زائدة ـ ابن مالك.

(١٣) مع أن العلاقة بيننا وبين هذا الرجل معدومة، لأسباب (درجية) من رفعنا بعضكم فوق بعض درجات.

حنتكوري ليمتد . . . . . .

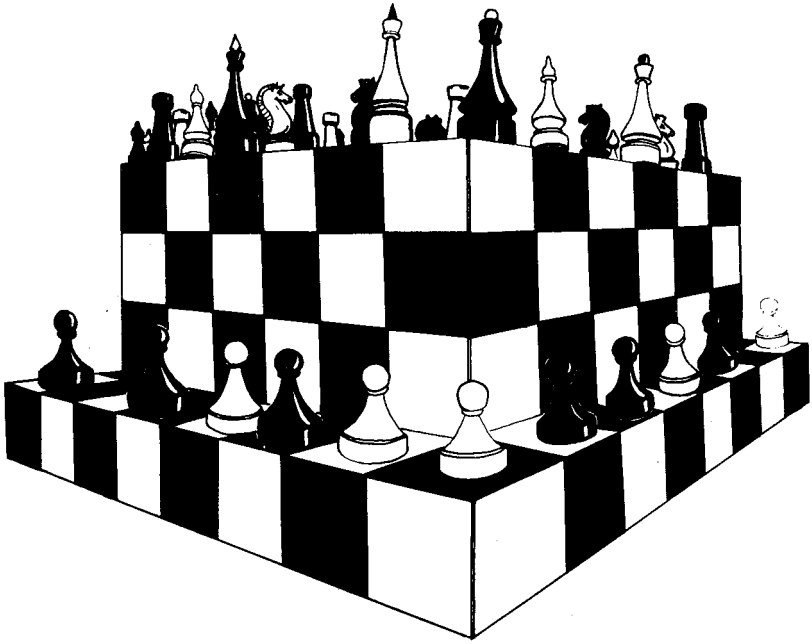

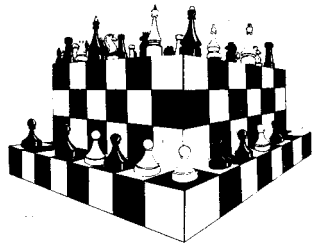

قبل أن أقص عليكم أيها السادة الأفاضل، وقائع ماجرى يوم الأربعاء ١٩٨٦/٧/٢، بيني وبين صديقي الشاعر الشاب عبد الفتاح الدرمول.. أرى لزاماً عليّ أن أوضح، لمن لا يعرف، الفرق بين العِدْل (قلم أحمر) والعَدل (قلم أزرق).. لما لذلك من اتصال بصلب القصة.

على جانبي كل عدل خطان متوازيان، شاقولياً إذا كان العدل واقفاً، وأفقياً إذا كان منبطحاً. لون هذين الخطين يكون دائماً: إما أحمر أو أزرق.

العدل (قلم أزرق) صغير الحجم، لا يحترمه الفلاحون... لأنه يكثر العدد، فيزيد الحسد.. لايدق ميزاناً ولايقطع ثمناً جيداً. أما العدل (قلم أحمر) فعلى العكس، له اعتباره. يحبه الفلاحون ويغتاظ منه العتالون.. (وما عرفته مؤخراً أن أطباء الجراحة العامة يتعاطفون معه، لأن من يحمله يكن معرضاً للفتاق، ومن ثم إلى زيارة الطبيب الجراح.. وهذه لاتحتاج إلى شرح).

لمحت صديقي الشاعر عبد الفتاح من النافذة المطلة على منعطف الشارع، وعلى كتفه عدل قلم أحمر، خمنت أن ما بداخله فليفلة، باذنجان، شحاطات بلاستيكية..... شيئاً من هذا القبيل، ذلك أن العدل المملوء بالحبوب يكون ـ في العادة ـ مزروكاً وأملس.. بينما كان هذا مبجباً.

قلت: مسكين ياعبد الفتاح. وقلت: يجب أن نعيد النظر في إطلاق تسمية

(شاعر) على زيد و(قاص) على عبيد، و(أديب) على نطاط الحيط. فالواحد من هؤلاء ـ عندنا ـ موظف أو عامل أو مستخدم، بأجر تافه، وله عمل بعد الظهر، ووقوف على أبواب المؤسسات. . . ، وزوجة تريد منه أن يجلس قبالتها ويطق معها حنكاً، بدلاً من طرق رأسه في الكتاب وسماعه موسيقى غير معروف رأسُها من أساسها في آخر الليل. . . وفوقها عتال. . . وشاعر أو قاص. . . . .

وتذكرت فيلماً شاهدته من مدة (لا بد وأنكم شاهدتموه مثلي) عنوانه (مأساة ممسحة!). . وقارنت بين حالتنا وحالة (بطلة الفيلم). .

وإذ وصل بي الشرود لا أدري إلى أين، سمعت خبطاً قوياً على الباب، . : رمحت، وأخذت أبرم في مكاني لا أدري أين أتجه. . إلى أن عدت إلى الواقع وهرعت إلى الباب.

كان الطارق يستخدم كعب حذائه في الطرق. (وهذه مسألة ـ كما تعلمون ـ غير مريحة). فتحت وإذا بعبد الفتاح يتعومد أمامي والعدل على كتفه والعرق يزخه.

ـ ابتعدْ قليلاً لو سمحت!

قال. وطوح العدل في الهواء وخبطه على الأرض.

ـ تفضل سيدي!.

وأسرع إلى المغسلة المواجهة لباب المرحاض، رشق بعض الماء على وجهه، ونشفه بمنشفة لم أجد وقتاً لإفهامه أن الأولاد يستخدمونها لأغراض أخرى.

ـ زوجتك هنا؟

ـ لا.

ـ أحسن!

وذهق الباب برجله فأظلم الجو. ركض إلى المطبخ، وعاد بعد قليل وفي يده، سكين قاطعة كنت قد اشتريتها من حمص أيام العسكرية. لمعت السكين

فرقصتْ ركبتاي، واقشعر بدني، وتراجعت نحو الجدار : (كل هذا وأنا متأكد من أن شائبة لم تَشُبْ علاقتي بعبد الفتاح منذ تعارفنا على مقاعد الدرس عام ١٩٦٤).

ـ أمسك هذه!

أمرني فائتمرت. وناولني آلة حاسبة من تلك التي ما أن تلمسها حتى تنطلق منها موسيقى حالمة... وانحنى على فوهة العدل وطق خيط القنب بنزق، ورمى السكين جانباً (هنا ارتحت قليلا).. وأمسك العدل من قرنتيه الخلفيتين وراح ينهزه حتى أفرغ محتوياته، ومد يده وأشعل النور. (.. بالمناسبة: لم يُقطع التيار الكهربائي عن المساكن الشعبية الجنوبية يوم الأربعاء ١٩٨٦/٧/٢).

كان في العدل مجلات وكتب أنيقة ورزم من الصحف محشورة فيما بينها كيفما اتفق.

ـ ما هذه؟ (سألته بعيني، ذلك أنني لم أستطع تحريك فمي)... فوضع سبابته على شفتيه طولانياً، طالباً ألا أعترض، فما اعترضت.

صمت لحظة. نفخ. قال:

ـ ألم تقل لي أنت إن كتابة مادة صحفية تستغرق مع الكاتب الذي يحترم نفسه وقراءه، ست ساعات على الأقل؟

ـ بلى!

ـ إذن تعال احسب معي كم استغرق رستم الحنتكوري في كتابة كل هذه المواد خلال شهر حزيران، على سبيل المثال... احسب.

وَرُحْتُ أحسب، مع أنني قلت لعبد الفتاح في عقلي:

ـ (...) عليك وعلى رستم الحنتكوري. كل هذا لتثبت لي أن الحنتكوري وأمثاله يتاجرون بالكتابة ولا يحترمون القراء..؟

بينما راح هو يمسك بالجريدة أو المجلة، يملي علي العنوان ويقذفها في الهواء، فتفرفح وتنزل في أرض الغرفة كالطير القلاب.

ـ أحسب خيّي، أحسب:

ـ مقالة عن علاقة اللغة بالمرأة.. إضافة إلى زاوية (كيف تكسبين رضا زوجك).. مجلة الحرملك.

ـ افتتاحية العدد ٤٢٣٧٥ من مجلة (مالي علاقة) التي تصدر في المهجر.

ـ عرض وتلخيص لكتاب (غلاء الأسعار فاحش) ـ صحيفة الغلاونجي.

ـ حنتكوريات الأسبوعية ×٤ زائد رستميات نصف الأسبوعية ×٢.. جريدة العلا.

ـ (القرامطة يسهرون على العتم).. ترجمة الحنتكوري عن مجلة آنتي كرمت ماجازين.

ـ رأي للحنتكوري في مسرحية (القاشوشة تقع في الجب) التي قدمتها مؤخراً فرقة حسب الله للفقش المسرحي.

ـ نقد تطبيقي على أغنية (حبيبي بيحب التش)..

ـ (ضرورة الحشمة في الأدب).... مقال...

ـ (نحن أبطال).. قصة....

ـ قصيدة شعرية بمناسبة مرور ست سنوات على استشهاد البطلة (....)

ـ كتاب صادر عن مؤسسة الحنتكوري للطباعة والنشر والإعلان ش.م.م... ليمتد.

ـ مقالة... قصة... مسرحيه..

ولم أدع عبد الفتاح يمتع بقية محتويات عدله. أمسكت بتلابيبه (ذلك أنني شعرت بأنني تلقيت ثلاثة أرباع البهدلة بالنيابة عن رستم الحنتكوري، بالإضافة إلى الدوش الذي ستعمله لي زوجتي عندما سترى أرض الغرفة).. قلت:

ـ اللعنة عليكما . . . وهل تراني في حاجة إلى وسائل إيضاح؟

نتر نفسه مني . قال :

ـ طول بالك قليلا . . . ثمة مقالة عن حب العرب للعدد (سبعة) وتعلقهم به . . .

ـ ما بها المقالة؟

ـ لقد توصل الحنتكوري إلى وجود علاقة وثيقة بين حبهم للسبعة وبين استهلاكهم المتزايد لمادة الـ (سيفن / آب) . . . .

صحت : أي ، فهمنا . . ماذا تريد بعد؟

ـ ماذا أريد؟ أريد كلمة حق . قصيدتي . . لقد أرسلتها إلى كل هذه الصحف والمجلات ولم تُنشر ألم تقل لي أنت إنها رائعة؟

ـ قلت . لكن من أنا؟ رئيس تحرير؟

ـ لا طبعاً . . . أعرف . . . أنت لست . . رئيـ . .

واستدار وخرج وهو يداري دمعة طفرت من عينه . . . بينما رحت أنادي عليه لكي يأخذ العدل . . على الأقل .

وقعدت أنتظر زوجتي .

ادلب / تموز ١٩٨٦

شارع التقدم

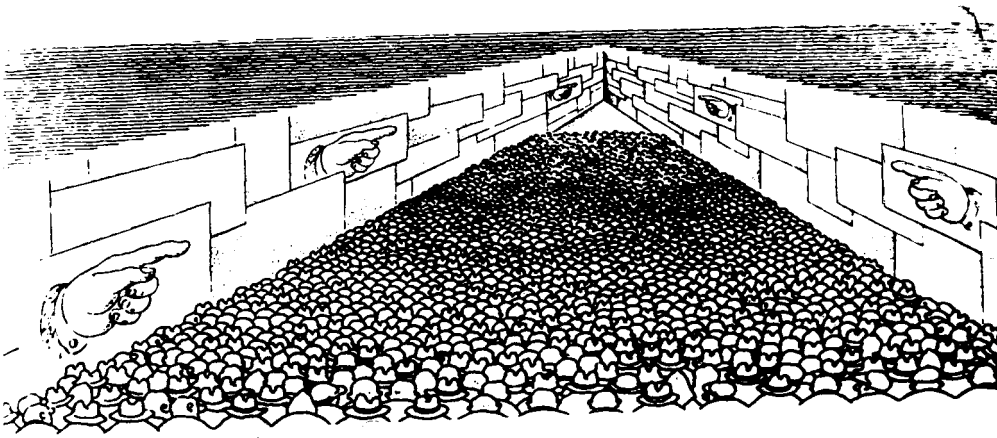

オレホフ　ソ連　課題
ORECHOV　U.S.S.R.　Theme-Event

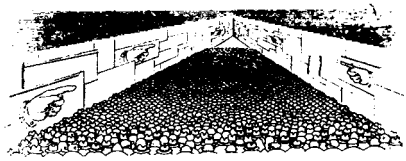

اكتشفت لكم فجأة، ومن دون سابق تفكير وصفن، السبب في أن الناس يقولون للواحد: (زيقُك نظيف). . فيعنون به أنه مستريح اقتصاديا، أو أنه ـ بالتحديد ـ ليس مديوناً لأحد.

ذلك أن من عادة الدائنين ـ قبحها الله من بين العادات ـ أن يمسكوا بتلابيب المدين غير المتمكن من الدفع آن الاستحقاق، يجدلون زيق قميصه على أيديهم، ويعصرونه حتى تنبق عيناه وتحمر أذناه. . . ، يضربون ظهره بالجدار مرات ومرات. . . ثم يتركونه خوفاً من أن يلفظها بين أيديهم؛ ويكلمون إفراغ ما تبقى من غيظهم وحقدهم عن طريق إرسال الشتائم التي يحفظونها عن ظهر قلب. (فإذا كان الرجل الواحد مديناً لأكثر من شخص، فإن العملية تتكرر، ويتوسخ زيقه فيقال: زيقه وسخ!)

أنا، إحدى نكرات هذا الزمان، تعرضت لحادثة إمساك من الزيق قبل أيام، ليس من أجل دين مترتب علي؛ معاذ الله، فأنا، بعد ما توكلت على الديّان الذي لم يندنْ لأحد قط، حصرت كل الديون المترتبة علي في مصرفين اثنين لا ثالث لهما: المصرف العقاري، ومصرف التسليف الشعبي. (. . وهذا الإجراء يستند عندي إلى قناعة متعوب عليها وراسخة، استقيتها من تجربتي الطويلة في هذا المجال! . .) . . . فالمستقرض من المصرف يستطيع ـ إذا أراد ـ ومتى أراد ـ أن

يمر من أمام باب المصرف، يسلم على موظفيه وحراسه وأذنته عندما يلتقيهم، أو لايسلم. . ، هو حر، لا بل إنه يمتلك الحق كل الحق في أن يدخل مقر المصرف في أي وقت يشاء، ورأسه يكاد أن يدق بالسقف زهوّاً وخيلاء. . . يستطيع أن يزور صديقاً له هناك ويتمطرق عنده ساعتين على فنجان قهوة رائح وكاس شاي آت. . . . دون أن يحق لأحد القول له: ماأجمل كِحْلَ عينيك! . . لِمَ لا مادام يدفع الأقساط في مواعيدها، والفوائد والعمولات مأخوذة منه سلفاً؟

لكن كيف ومتى ولماذا مُسكت من زيقي؟ هذا ما أنا خافٌ إلى تبيينه حالاً:

صديقي عبود (وهذا اسم التحبب من اسمه الكامل: عبد القهار القرمة)، سمعني مرة أحكي عن التخلف، وعن كيف يكون التخلف سبباً أو نتيجة أو عرضاً، أو كل هذه مجتمعة، لظاهرة شاذة نراها تجري أمامنا.

ولأن عبوداً ـ كما يقول هو عن نفسه ـ بجرأة منقطعة النظير ـ غبي، بليد، صاحب معلاق كبير ورأس يندار الحائط ولا يندار. . ، لأنه كذلك فقد قال لي وهو يلف ياقة قميصي على يده:

ـ دوختنا يا رجل. . اتق الله. . . كل شيء ترده إلى التخلف، التخلف. . . لقد أشبعتنا علكاً وكلاماً فارغاً من ذاك الذي تسميه (التنظير)، أفلا ترينا مثالاً عملياً واضحاً ملموساً، يستطيع المرء أن يقول عنه: هذا هو التخلف بعينه؟؟

قلت: بلى (ونترت نفسي منه). . تفضل! . . وسحبته من يده ورحت أركض به من شارع إلى شارع حتى وصلنا (شارع التقدم). قلت: انظر بعينك ياعبيدة وارحم بقلبك قال: نظرت. قلت: انظر إلى هذا العامل وقل لي ماذا يعمل. قال: إنه يبلط الرصيف. قلت: عليك نور. ورجعت به خطوتين إلى الوراء. قلت: وهذا الآخر ياعُبَيْبِيْدُ؟ قال: إنه يقلع مما بلط زميله كي يزرع حاجبات للمشاة. قلت: عليك شركة كهرباء. ثم سحبته ثلاثة أمتار إلى الخلف. قلت وهذا يا أبا الأعباد؟ قال: يحفر خندقاً في الرصيف المبلط لتوه.

قلت: عليك سد الفرات بعنفاته.. وهؤلاء الرجال الواقفون وهذه السيارات والآليات.. و.. و...؟ قال: هؤلاء للخدمة والإشراف والتوجيه... قلت: وماذا تسمي هذا يا أبا الأعبدة؟ فصاح:

ـ تخلف... تخلف... تخلـ.... و.. ووووو.. ف..!

ودوى صوته في الأرجاء وهو يركض مثلما ركض أرخميدس يوم اكتشف قانون الإزاحة في جرن الحمام، وهو يصيح: وجدتها!.. بينما كنت أنده عليه لأريه مثالاً آخر، عملياً واضحاً ملموساً...

ادلب / أيلول ١٩٨٦

حمّى القراءة

إلى أحمد عمر، كفا، لقمان ديركي، بسام حسين، محمد فؤاد، حسين بن حمزة.

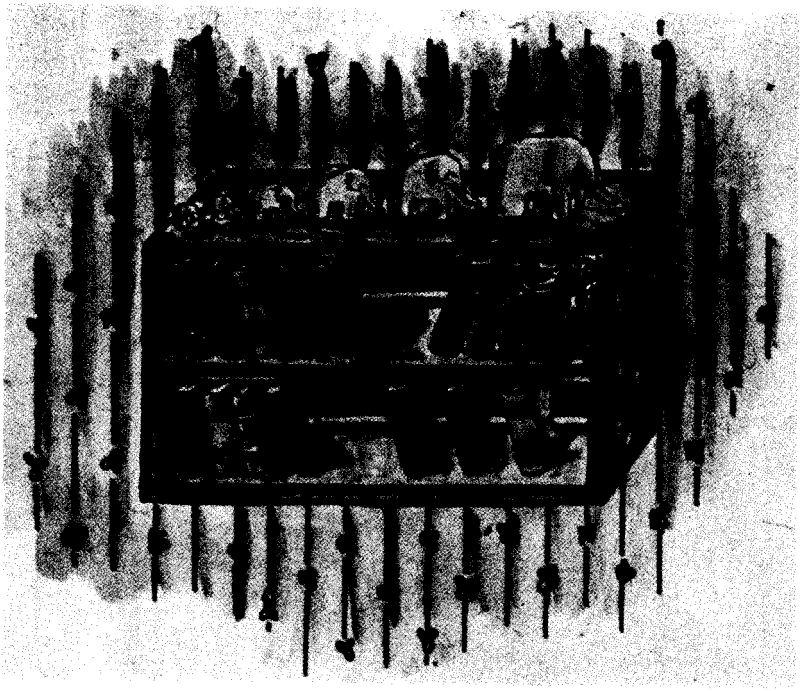

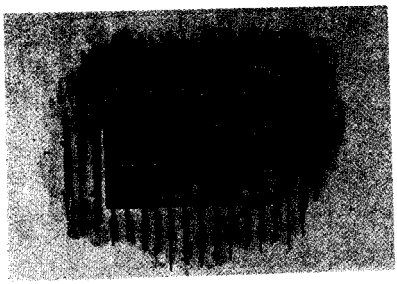

كان أن اتفقنا، بناء على اقتراح لايخلو من وجاهة، تفتق عنه ذهن آكوب فجأة، كرد فعل طبيعي، وحتمي ومنطقي، على احتجاج زوجاتنا علينا بسبب إفراطنا في الشرب، وتقريعهن المستمر لنا، وتعييرهن إيانا بكوننا عديمي النفع نمضي أوقات فراغنا في قرع الكاس بالطاس، وفي الضحك والتهريج والبياخة والمسخرة . . . اتفقنا على أن نستبدل كلمة (شربنا)، أينما وردت في أحاديثنا، بكلمة (قرأنا) . . وأن نستبدل كلمة (زجاجة) الفصيحة، التي يقابلها في اللهجتين الشامية والحلبية كلمة (أنّينة) مع اختلاف في إخراج الحرف الأول بين مرقّق ومفخّم، التي يوازيها في لهجة ادلب كلمة (سوداي)، أينما وردت، بكلمة (كتاب) . . . فإذا سمعت أحدنا يقول:

ـ البارحة قرأت كتاباً؟

فاعلم أنه يقصد:

ـ البارحة شربت زجاجة!!

أما ما يصطلح عليه ضمن الحدود الاقليمية لخمارة أبو نقول بكلمة (بطحة) فلا أسهل من إيجاد معادل لها، والحاجة أم الاكتشاف.

عندما حل المساء التالي ليوم عقد الاتفاق، أحسست أن رأسي قد طاش حتى صار، مثل القرعة الرومية، كبيراً فارغاً في آن. وكان ينغل فيه ثمة مايشبه

خليـة نحـل حبيسة جعلت أذنيَّ تلتقطان صوتاً أشبه ما يكون بوشّة التلفزيون التي تلي انتهاء الإرسال، . . فأزمعت القراءة.

من جهتها، الواقفة لي بالمرصاد، زوجتي، تدرك مثل هذه الحالة إدراكاً . . فراحت تتشاغل بإنجاز بعض الأعمال، تاركة عينيها معلقتين على باب الصالون المؤدي إلى الممر، فالشارع، مروراً بالحديقة.

وفي مثـل هذه الحـالات ـ أنت تعـرف ـ يجب على المـرء أن يطبق فردتي حذائـه، الـواحـدة على الأخـرى، وجهـا لوجه، ويضعهما تحت إبطه، ثم ينسل ملامساً الأرض برؤوس أصابع قدميه، ملامسة لا تكاد تذكر.

همست بإغلاق الباب ورائي فجاءني صوتها مباغتاً، شبهَ هامس، مملوءاً بالتهكم:

ـ إذا الله يسر؟ إلى أين؟

فاضطربت وسقط الحذاء من تحت إبطي . . قلت:

ـ إإ. . . إإ. . . إلى المركز الثقافي. . يجب أن أطلع على بعض المراجع. . .

وكنت سأضيف: العمى! . .

لكنني فوجئت بها تنقلب على قفاها من شدة الضحك:

ـ إلى المركز الثقافي؟ لا بد أنهم عينوك حارساً عليه!!

وهنـا وجـدت أن لابـد من إطـلاق زخمـة في وجههـا، مع شتيمـة مما ييسره سبحانه في مثل هذه الحالات. فصحت وأنا أدك حذائي في قدمي وأدفعها من طريقي:

ـ ليس إلى المركز. . . إلى جهنم الحمرا. . ما هذا؟ وصاية يعني؟ العمى! . . .

وتـركتهـا تُفَـبرك جملاً مفيـدة في شتمي، وفي شتم الـرجـال بشكـل عام، والنساء اللواتي يقع نصيب الواحدة منهن على رجل قليل ناموس مثلي. . .

مضيت بأقصى سرعـة أمكنتني. كنت أخـاف كل الخـوف من أن يكـون آكوب قد مر بمحمد علي، وأخذه وراحا إلى مكان غير الأماكن التي نرتادها معاً، في حين تمسـك بي زوجـة محمـد علي الشبيهـة ببرميل القطر العملي، تقعدني على الديوانة وتقول لي:

- عن إذنك لحظة!

وتهرع إلى المطبخ، ثم تعود منه حاملة إبريق الشاي والكؤوس، تصب لي ولها، وتقعـد تحكي لي ساعـة كاملة، عن الطبـخ النفـخ، والـزلـع والبلع، وعن الخطب التي انعقدت، وتلك التي انفسخت، وعن حالة الطقس كما يتوقعها (أبو عصـاي)، وكـما تتـوقعهـا هي، وعن الـوفيـات والولادات الحديثة وعن كرم أبيها الحـاتمي، وأربـاحـه في التعهـدات العـامـة، وعن مراجل أخيها مصطفى، وعدد ضحـايـاه... إلى آخـر ماهنـالـك من لتّ وعجن.. حتى تصـل إلى قضيـة المشروبات الكحولية، فتصب جام غضبها على زوجها، الذي صار، من كثرة ما يكـركـع من هذا الدوليقي اللعين، إذا عصرته تشر منه الخمور شراً... وتنتهي، من ثم، إلى نصيحـة جماعيـة، لزوجهـا (غيـابياً)، ولي (وجها لوجه)، ولكل من يتعـاطى المنكـر من عبـاد الله، مفادها أن هذا الشايع، يهري المصارين، ويُذهب المـال، ويسبب مرض السكـري، وتشمع الكبد، ويقطف نضارة الوجه، فيصبح وجه شاربه مثل وجه قاتل الحسنين الشريفين، ويضيع الوقت، ويخلق المشاكل مع الناس.. هذا بالإضافة إلى كونه، أولاً وأخيراً، حرام...

رننت الجـرس وابتعـدت. قلت أسألهـا عن محمـد علي وأتظـاهـر بأنني مستعجل.. فإذا لم يكن موجوداً فقست نافداً بريشي..

فتح الباب، ثم سرعان ما انسد بجسدها الشبيه ببرميل القطر العملي. بادرتها:

- مرحبا. محمد علي هنا؟

ومن خلال الفراغات الطفيفة التي تركها جسدها مع الباب أتاني صوت محمد علي:

ـ أهلين وسهلين أبو جريج.. أدخل أدخل... حماتك لاتحبك.. أين أنت يا رجل؟

كان وجه المرأة ينقط سماً، لكن كان لابد لها من إدخالي، فأدخلتني:

ـ السلام عليكم... خيراً؟ لماذا لا تحبني حماتي؟

ـ لأنها لو كانت تحبك لوجدناك في البيت البارحة.

كان يحكي ولسانه يتعثر في فمه:

ـ البارحة مر علي آكوب في حدود الساعة الثامنة. كان ملهوفاً وكأننا لم نلتق في الصباح. قال لي: عندك شيء يقرأ؟ قلت: عندي مجموعتان قصصيتان يعود إصدارهما إلى بداية عصر النهضة.... ش ش... ش شي أبهة... ما رأيك؟ قال: عال هاتهما تلحيقة. لكن، دقيقة، خلنا نصيح لأبو جريج الأول... ما حلوة نحن نتثقف ونتركه يتخبط في جهله وأميته.. نَفِّعْ صديقك بشيء لا يضرك! وتركني وخرج. ثم عاد لاهثا. قال: نصيبه في جنان الخلد، هات! فناولته مجموعة وأخذت أنا واحدة. ساعتان من الزمان قرأناهما من الجلدة للجلدة. مسح آكوب عينيه وقال: ما اكتفيت. قلت: ولا أنا. قال: إلى المكتبة إذن. قلت هيا. دون إبطاء. وسحبت آكوب من يده وخرجنا على مرآى العذال وطقيق الحساد من العباد. يا ساتر! وجوه تقطع الرزق.

وصلنا مكتبة أبو نقول في حدود العاشرة والنصف. كان آكوب يحثني على الإسراع في المشي ويقول: يارب نلاقيها فاتحة. فأقول له: لا تخف! غير معقول أن تغلق أبوابها والناس مقبلة على العلم والمعرفة هذا الإقبال الرائع.

لم يخب ظني. كان المكان عامراً. الشباب كلهم كانوا هناك: نيفون وحسين وجمعة وهزاع وداوود وثروت.. القراء القدامى... قراء جدد.. البعض كان يقرأ وهو قاعد، البعض الآخر كان يقرأ وهو واقف... الداخلون الخارجون

النائمون. . . . والنقاش النقاش! كان النقاش واصلاً إلى محازم الخيل. كل ثلاثة إلى أربعة في فكرة. . . ولكم كان نقاشاً حامياً. أكثر من مرة كاد يوصل إلى استلال السكاكين وضرب الكراسي. . لكن ربك ستار!

إن المرء يا أبو جريج، وهو يرى هذا الحماس المنقطع النظير للقراءة والمعرفة والثقافة، ليطمئن على مستقبل هذه البلاد. . الشعوب الأخرى، بعدما كنا نضعها في جيوبنا الخلفية، كيف تفوقت علينا وسبقتنا؟ بالعلم والمعرفة طبعاً. والعلم والمعرفة، كيف يتأتيان؟ بالقراءة طبعاً. ونحن ماذا نعمل في مكتبة أبو نقول حتى نصاص الليالي؟ نقرأ طبعاً. . . .

جاء قيم المكتبة ومعه ورقة وخلف أذنه قلم رصاص صغير مُبرى من الطرفين. سألنا:

- أشو بيحب الشباب يقروا؟

فقال آكوب:

- والله أنا تعبان. هات لي رواية لإحسان عبد القدوس لأطقطق بها.

فسجل القيم في ورقته. لم أكن أشعر بالتعب فقلت:

- أما أنا فأعطني سيرة عنتر. . . . .

كان الجويساعد على القراءة. المسجلة تصدح بأغنية (الساعة كام؟). صاحبك أبو عدوية خير من رطب جوا في مكتبة عامة. حملنا الكتب بأيدينا وصرنا نقرأ. . نرقص ونقرأ. . نغني مع أبو عدوية ونقرأ. . . يا سلام! شي بيرفع الرأس.

وفي لحظة انسجام مع الذات صاح آكوب:

- هات مجلدات، ملاحم. . . . . أي شيء يخطر ببالك هاته!

الابن الحرام، ألم يقل إنه تعبان؟. . تقدم مني وهو يرقص بآخر ملزمة من رواية عبد القدوس وصاح:

- اليوم قراءتك على حسابي أبو جريج. . اقرأ. . الدنيا من دون قُرّاء. . .

فقلت مجاملا :

ـ هات لي مجموعة شعرية . . . لكن انتبه . . أريده عمودياً . . .

كنت في الحقيقة أحسب خطة الرجعة . . زوجتي الواقفة هناك مثل برميل القطر العملي، أليست محقة عندما تقول إن على الإنسان أن يداري صحته؟ محقة. يعني القراءة، ألا تضعف البصر؟

وعلى إقرأ ولا تقرأ، وارقص ولا ترقص، وناقش ولا تناقش . . نظرت وإذا الساعة قد جاوزت الثانية . قلت لآكوب :

ـ نتيسر بقى . ما رأيك؟

فقال :

ـ لا مانع . لكن تعال نأخذ شيئاً نقرؤه على الطريق .

نادينا قيم المكتبة . صر لنا مسرحيتين . أخذناهما وخرجنا .

كانت المصابيح في طريقنا معطلة كلها . فقرأنا المسرحيتين على ضوء القمر . أحسس أنني لا زلت أمتلك بعض القوة في حين آكوب قد ظهر عليه التعب . قلت أوصله إلى باب بيته وأتابع أنا إلى بيتنا . . . .

لكن آكوب، عندما أحس أنه قد صار أمام بيته، انسند إلى الجدار، واستظهر كل ما قرأه طيلة السهرة . . . أعاده كله على الغائب .

* * *

عندما وصل محمد علي في حديثه إلى هذه النقطة تذكر أنه هو الآخر يستطيع استظهار كل ماقرأه ليلة الأمس، وربما نهار اليوم . . . فاستظهره وغاب .

ادلب ٢ / ٥ / ١٩٨٧

الفهرس

حكى لي الأخرس ٩
تعريف لابد منه ١٠
من أجل برميل ١١
أخطاء مطبعية ١٩
مجتمع فاسد ٢٥
محاولات للدخول في قصة (البرميل) ٣٣
حنتكوري ليمتد ٤١
شارع التقدم ٤٩
حمى القراءة ٥٥

هذا الكتاب

خطيب بدلة ذاك الذي جاء الى عالم الكتابة ناضجاً، ومشاكساً منذ البداية في كتاباته بساطة تقترب من اليومي، لكنه اقتراب المبضع من الجرح. وقد اختار السخرية فيما يكتب.. لكنها السخرية المريرة التي ترسم على شفتيك ابتسامة عريضة في البداية، ثم تخلّف فيك مرارة اكتشاف الواقع.

مجموعة قصصية ربما ستدفع بكاتبها الى الصفوف الأولى، وتؤسس لقصة ساخرة طالما افتقدها أدبنا العربي.

السعر ٢٣ ل. س